جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة تكريت
قسم علوم القرآن والتربية الإسلامية
الدراسات الأولية
المرحلة الأولى

محاضرات في مادة :

علوم القرآن

المحاضرة الثالثة : مفهوم نزول القرآن – الوحي وصوره

م.د. نور سعد حمود

للعام الدراسي ٢٠٢٥ / ٢٠٢٦م

١٤٤٧هـ ٢٠٢٦م

المحاضرة الثالثة :

مفهوم نزول القرآن – الوحي وصوره

- **فتور الوحي :**

إن الارتقاء إلى مقام النبوة الذي تتكشف معه حجب الغيب، ويتصل الإنسان فيه بعالم الروح– أمر يستدعي كثيرا من الإعداد النفسي الذي ينقل الإنسان إلى ذلك المقام من غير أن يصاب بانهيار نفسي أو اضطراب عقلي، ويلمس المتأمل جوانب ذلك الإعداد الإلهي في حياة النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – متمثلة بأمور عدة منها:

١. ما رآه وسمعه من الضوء والصوت غير المألوف له من قبل.
٢. الرؤيا الصادقة التي صارت تتكرر وتتحقق مما يخرج عن العادة.
٣. الميل نحو الخلوة، وتفرغه لها في أعلى جبل حراء، وما توحيه تلك الخلوة في ليلها الساجي الساكن ونهارها الضاحي الطويل من شعور.
٤. ما لقيه – صلى الله عليه وسلم – من الضم الشديد من الملك في اللقاء الأول، لإعداده لتحمل الثقل المصاحب لإيحاء القرآن إليه.

وقد كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعد ذلك اللقاء المبارك في غار حراء في حاجة إلى وقت للراحة والتأمل في حقيقة هذا الأمر الجديد في حياته، وتحقق ذلك بانقطاع نزول جبريل عليه مدة من الوقت جعلته يتشوق إلى لقائه مرة أخرى، بعد أن زال عنه الرّوع، وأخذ يتفكر في كلمات ورقة بن نوفل الذي لم يلبث أن توفي بعد أن سمع منه تفسيره لما وقع له في غار حراء، فروى ابن سعد عن عبد الله بن عباس «أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لمّا نزل عليه الوحي بحراء مكث أياما لا يرى جبريل، فحزن حزنا شديدا، حتى كان يغدو إلى ثبير مرة وإلى حراء مرة، يريد أن يلقي نفسه منه، فبينا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كذلك عامدا لبعض تلك الجبال

إذ سمع صوتا من السماء، فوقف رسول الله – صلى الله عليه وسلم – صعقا للصوت، ثم رفع رأسه، فإذا جبريل يقول: يا محمد أنت رسول الله حقا، وأنا جبريل، قال: فانصرف رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقد أقرّ الله عينه، وربط جأشه، ثم تتابع الوحي بعد وحمي» .

ونقل البخاري الرواية بتفصيل آخر عن جابر بن عبد الله الأنصاري «قال وهو يحدّث عن فترة الوحي، فقال في حديثه: بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتا من السماء، فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت فقلت: زمّلوني، فدثّروه، فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥﴾ [المدثر: ١–٥]، ثم تتابع الوحي» .

وهكذا ذهب في هذه الفترة ما وجده رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من الرّوع في لقاء غار حراء، وكذلك تشوّق، بعد ذهاب الرّوع عنه، إلى رؤية الملك مرة أخرى .

قال الحافظ ابن حجر: «وفتور الوحي عبارة عن تأخره مدة من الزمان، وكان ذلك ليذهب ما كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وجده من الرّوع، وليحصل له التشوّف إلى العود ... » .

وقد أيقن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعد هذا كله أن الله تعالى قد اختاره رسولا، وصار يتلقى القرآن عن طريق جبريل فحمل أعباء الرسالة وأخذ يدعو إليها واستمر جهاده ثلاثا وعشرين سنة اكتمل خلالها نزول القرآن، وترسخت الدعوة والعقيدة في أرجاء الجزيرة العربية، قبل وفاته – صلى الله عليه وسلم – .

ذهب عدد من المؤلفين في علوم القرآن في عصرنا إلى أن مدة فتور الوحي كانت ثلاث سنين، معتمدين في ذلك على رواية عن عامر الشعبي أحد علماء التابعين (ت ١٠٣ هـ) (ينظر: محمد رشيد رضا: الوحي المحمدي ص ١٢٥، ومحمد عبد الله دراز: مدخل إلى القرآن الكريم ص ٣٠، وصبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن ص ٣٦، ومالك بن نبي: الظاهرة القرآنية ص ١٨٥).

والذي يبدو راجحا هو أن فتور الوحي لم يمتد ثلاث سنوات للأسباب الآتية:

١. إن الرواية المنقولة عن عامر الشعبي لا تتحدث عن فتور الوحي أولا، وهي رواية غير موثوقة عند أهل العلم ثانيا، وجاء فيها «بعث لأربعين، ووكّل به إسرافيل ثلاث سنين، ثم وكّل به جبريل» (ينظر: ابن حجر: فتح الباري ١/ ٢٧). وقال ابن سعد في شأن هذه الرواية: «فذكرت هذا الحديث لمحمد بن عمر (يعني الواقدي شيخه) فقال: ليس يعرف أهل العلم ببلدنا أن إسرافيل قرن بالنبي – صلى الله عليه وسلم – وأنّ علماءهم وأهل السيرة منهم يقولون: لم يقرن به غير جبريل من حين أنزل عليه الوحي إلى أن قبض صلى الله عليه وسلم» (الطبقات الكبرى ١/ ١٩١).

٢. إن ما ورد في روايات فتور الوحي لا يحدد المدة التي كانت بين نزول أول سورة العلق ونزول أول سورة المدثر، ويبدو أنها لم تطل كثيرا، ففي رواية البخاري «وفتر الوحي فترة، حتى حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم» (صحيح البخاري ٦/ ٢١٥)، وفي طبقات ابن سعد «لما نزل الوحي بحراء مكث أياما لا يرى جبريل، فحزن حزنا شديدا» (الطبقات الكبرى ١/ ١٩٦)، وفي السيرة النبوية لابن هشام «قال ابن إسحاق: ثم فتر الوحي عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فترة من ذلك، حتى شق ذلك عليه فأحزنه» (السيرة النبوية ١/ ٢٤١).

٣. إن انقطاع الوحي ثلاث سنوات لا يتناسب مع ما وجد فيه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – نفسه من التطلع إلى لقاء جبريل وما أصابه من الحزن بسبب تأخر ذلك بعض الوقت، فلو كانت مدة انقطاع الوحي ثلاث سنوات لأدى ذلك فيما أحسب إلى أحد أمرين: إما نسيان القضية كلها، وإما أن يؤدي ذلك الحزن بحياته – صلى الله عليه وسلم – ومن ثم فإن الراجح أن مدة فتور الوحي كانت أياما أو أسابيع معدودة (ينظر: ابن حجر: فتح الباري ١/ ٢٧ و ٨/ ٧١٠ و ١٢/ ٣٦٠).

- **كيف تلقى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – القرآن :**

ليس من شأن البشر التلقي عن الله تعالى مباشرة، وقد أكد القرآن ذلك، وبيّن السّبل التي يبلّغ الله بها كلماته إلى المصطفين من عباده، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾[الشورى : ٥١-٥٣].

فهذه الآيات تبيّن أنّ هناك ثلاث طرق لتبليغ المعرفة الإلهية هي:

١. الوحي: ومعناه في اللغة الإعلام الخفي ، وقد يكون بالرؤيا الصادقة أو بالإلهام، وهو أن يلقي الله في النفس أمرا يبعث على الفعل أو الترك .

٢. من وراء حجاب، كما كلّم الله تعالى موسى، عليه السّلام (سورة النساء ١٦٤ وسورة طه ١١).

٣. الرسول، وهو الملك الذي ينزل إلى الانبياء والرسل .

وقد أشارت الآية السابقة إلى أن ما أوحاه الله إلى النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – هو من جنس ما أوحاه إلى الأنبياء السابقين ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا﴾ [الشورى:٥٢]، وقد أكدت هذا المعنى آيات أخرى، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾[النساء:١٦٣].

وقد سمّي نزول جبريل –عليه السّلام– بالقرآن على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وحيا لأنه أسرّه على الخلق، وخصّ به النبيّ المبعوث إليه، فلم يكن الصحابة يرون الملك وقت نزوله بالقرآن، مع أنهم شاهدوا آثار نزوله.

ولا شك في أن الوحي من الغيب الذي لا يعرف بالحواس ولا يدرك بالعقل المجرد، ومن ثم فإن القول في حقيقته وكيفيته يتوقف على ما ورد عنه في القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة، وقد جاء في عدد من الأحاديث والآثار وصف لحالة النبي – صلى

الله عليه وسلم – وقت نزول جبريل بالقرآن، منها ما يتعلق بالجانب الخفي من الوحي، ومنها ما يتعلق بآثاره الظاهرة التي لاحظها الصحابة، رضي الله عنهم.

أما الجانب الخفي من الوحي فقد سأل الصحابة عنه رسول الله – صلى الله عليه وسلم– فقال عبد الله بن عمرو: «سألت النبي – صلى الله عليه وسلم – فقلت: يا رسول الله: هل تحسّ بالوحي؟ قال: نعم، أسمع صلصلة، ثم أسكت عند ذلك» .

وروى البخاري «عن عائشة أم المؤمنين–رضي الله عنها– أن الحارث بن هشام، رضي الله عنه، سأل رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم– : أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشدّه عليّ، فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحيانا يتمثّل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول» .

ويؤكد هذا الحديث أن للوحي صورتين، لكن يجب ملاحظة تأكيد النبي – صلى الله عليه وسلم – على وعيه لما يلقيه إليه الملك في كلتا الصورتين، فهو يتلقاه بقلبه وينطبع في عقله، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الشعراء:١٩٢–١٩٥].

وأما الجانب الظاهر المتعلق بآثار الوحي المحسوسة فقد تحدث عنها الصحابة–رضوان الله عليهم– ونقلوها إلى أجيال الأمة ، وأول ما لاحظوا أن النبي –صلى الله عليه وسلم– كان يعاني من التنزيل شدّة، فقد نقل مسلم بن الحجاج في صحيحه عن عبادة بن الصامت أنه قال: «كان نبي الله – صلى الله عليه وسلم – إذ أنزل عليه كرب لذلك» . وأنه إذا أنزل عليه الوحي أخذته البرحاء– كما روى البخاري – والبرحاء شدّة الحمّى، وهي هنا شدّة الكرب من ثقل الوحي. وقد لاحظ الصحابة تصبب العرق من جبينه، قالت السيدة عائشة، رضي الله عنها: «ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصّد عرقا».

وكانت تلك الشّدّة المصاحبة للوحي التي تغشى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يمتد تأثيرها إلى ما يتصل به أو يلامسه، فها هم الصحابة يشهدون رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يوحى إليه وهو على ناقته، فتغشى الناقة تلك الشدة، كما روى ابن سعد عن أبي أروى الدّوسي، قال: «رأيت الوحي ينزل على النبي – صلى الله عليه وسلم – وإنه على راحلته، فترغو وتفتل يديها، حتى أظن أن ذراعها ينقصم، فربما بركت، وربما قامت موتّدة يديها، حتى يسرّى عنه من ثقل الوحي، وأنه ليتحدّر منه مثل الجمان» .

وها هو زيد بن ثابت كاتب الوحي يقول: «إني لقاعد إلى جنب النبي – صلى الله عليه وسلم – إذ أوحي إليه، وغشيته السكينة، فوضع فخذه على فخذي، قال زيد، فلا والله ما وجدت شيئا قطّ أثقل منها» وفي رواية: «فثقلت عليّ حتى خفت أن ترضّ فخذي» .

وكان مما لاحظه الصحابة عند نزول الوحي ما رواه عدد من المحدّثين عن عمر بن الخطاب أنه قال: «كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا نزل عليه الوحي يسمع عند وجهه دويّ كدويّ النحل» .

إن المتأمل لحالة نزول الوحي في جانبيها الغيبي الذي وضّحه النبي – صلى الله عليه وسلم – والمحسوس الذي وصفه الصحابة، رضي الله عنهم، يدرك أنها أبعد ما تكون عن حالة السبات الطبيعي الذي يعتري المرء في وقت حاجته إلى النوم، فإنها كانت تعرو النبي – صلى الله عليه وسلم – قائما أو قاعدا أو سائرا أو راكبا، بكرة أو عشيا، وكانت تعروه فجأة وتنقضي في لحظات يسيرة، لا بالتدريج الذي يعرض للوسنان الذي يغفو ويغرق في النوم، كما أنها حالة تباين كليا تلك الأعراض المرضية والنوبات العصبية التي تصفرّ فيها الوجوه، وتبرد الأطراف، وتصطكّ الأسنان، وتتكشف العورات، ويحتجب نور العقل، لأنها حالة تتسم بالجلال والوقار، وهي مبعث نور لا ظلمة، ومصدر علم لا جهالة.

إن حالة الوحي تكررت مرات كثيرة، في حياة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعد بعثته، وكانت تلك الحالة معروفة للصحابة، وكانت تتسم لحظاتها بالسكينة والوقار، وكان الصحابة يطرقون خلالها بانتظار سماع الوحي الجديد، روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أنه قال: «وكان إذا جاء الوحي لا يخفى علينا، فإذا جاء فليس أحد يرفع طرفه إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حتى ينقضي الوحي» .

إن التلقي عن الله تعالى، حتى وإن كان عن طريق الملك، أمر خارج عن معهود الناس، إنه أمر عجيب، لكنه حدث مرات كثيرة على عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأحس بحدوثه كثيرون، ورأوا مظاهره رأي العين، وتلقّوا ثمرته، وهي هذا القرآن العظيم الذي تلاه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على الناس، وحفظه عنه صحابته، وكتبوه، وعلّموه من جاء بعدهم، وتناقلته الأمة خلال العصور.